الأهداف التربوية والتعليمية للسور المكية والمدنية في تفسيري «الميزان» و«مجمع البيان» دراسة مقارنة

م.م. منتظر بدر سلمان الجنابي كلية الإمام الكاظم(ع)

The educational and pedagogical objectives of the Meccan and Medinan surahs in the interpretations of "Al-Mizan" and "Majma' al-Bayan": A study Comparison

Asistant.Inst. MUNTADHER BADR SALMAN

Abstract: After the Holy Qur'an, it is a major source of guidance and purification, and it has formed a spiritual and scientific source that contributed to building Islamic civilization. Educational and pedagogical meanings branched out from its verses and are still strongly present in contemporary Islamic thought.

The noble prophetic traditions and narrations from the Ahl al-Bayt (peace be upon them) urged believers to recite the Qur'an, ponder its meanings, and reflect on its purposes. This call formed an important interpretive background that helped interpreters delve into the educational and social dimensions of the verses and chapters, taking into account the objectives of revelation according to the stages of revelation and the different nature of the Meccan and Medinan chapters.

In light of this prophetic and Ahlulbayt guidance, serious attempts emerged to define the objectives of the surahs and distinguish their characteristics according to the contexts of their revelation. Advanced exegetical studies have demonstrated that the idea of distinguishing between Meccan and Medinan surahs was not foreign to the scholarly atmosphere of early Islam; rather, the Prophet (peace be upon him) and the Imams of his household (peace be upon them) adopted it in explaining the purposes of Islamic law and the methods of calling to Islam. Thus, semantic divisions emerged, aiming to highlight the specific character of each group of surahs and define their message within the overall Quranic framework.

Article history
Received: 14 / 7 /2025
Accepted: 9 / 12 /2025
Published : 31 /12/2025

تواريخ البحث
تاريخ الاستلام: 14 /7 /2025
تاريخ القبول: 9 /12 /2025
تاريخ النشر :31/12/2025

الكلمات المفتاحية : تفسير الميزان، تفسير الطبرسي، السورة المكية، السورة المدنية، الهدف التوبوي

Keywords : Al-Mizan Commentary, Al-Tabarsi Commentary, Meccan Surah, Medinan Surah, Educational Objective

© 2023 THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CC BY LICENSE

http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

Corresponding author:
muntadharbadr@gmail.com

DOI:

https://doi.org/10.61710/xjteb841

The study adopted an inductive library approach based on reliable interpretive sources and available digital records, while following a descriptive analytical approach aimed at exploring the educational structure in the chapters of the Holy Qur'an through a selected interpretive record represented by the interpretations of Majma' al-Bayan by Allamah al-Tabarsi and Al-Mizan fi Tafsir al-Qur'an by Allamah al-Tabataba'i, because they are among the most prominent interpretations that combined transmission and reason, and the apparent and the hidden in a comprehensive systematic way.

المستخلص :

يعد القرآن الكريم مصدراً رئيسًا للهداية والتزكية، وقد شكّل منبعاً روحياً وعلمياً أسهم في بناء الحضارة الإسلامية، وتفرّعت من آياته معانٍ تربوية وتعليمية ما زالت حاضرة بقوة في الفكر الإسلامي المعاصر .

حثّت الأحاديث النبوية الشريفة والروايات الواردة عن أهل البيت (عليهم السلام) المؤمنين على تلاوة القرآن وتدبّر معانيه والتفكّر في مقاصده، فشكّلت هذه الدعوة خلفية تفسيرية مهمة ساعدت المفسّرين على الغوص في الأبعاد التربوية والاجتماعية للآيات والسور، مع مراعاة أهداف الوحي حسب مراحل النزول واختلاف طبيعة السور المكية والمدنية .

في ضوء هذا التوجيه النبوي والعتروي، ظهرت محاولات جادة لتحديد أهداف السور وتمييز خصائصها وفق سياقات النزول، وقد أثبتت الدراسات التفسيرية المتقدمة أن فكرة التمييز بين السور المكية والمدنية لم تكن اجنبية عن الأجواء العلمية في صدر الإسلام، بل اعتمدها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة من أهل بيته (عليهم السلام) في بيان مقاصد التشريع ومناهج الدعوة. وهكذا برزت تقسيمات دلالية تهدف إلى إبراز الطابع الخاص لكل مجموعة من السور وتحديد رسالتها ضمن المنظومة القرآنية الكلية .

اعتمدت الدراسة منهجاً مكتبياً استقرائياً يستند إلى المصادر التفسيرية الموثوقة والمدونات الرقمية المتاحة، مع اتباع منحى وصفي تحليلي يرمي إلى استكشاف البنية التربوية في سور القرآن الكريم من خلال مدونة تفسيرية مختارة تمثلت في تفسيرَي "مجمع البيان" للعلامة الطبرسي و"الميزان في تفسير القرآن" للعلامة الطباطبائي؛ وذلك لكونهما من أبرز التفاسير التي جمعت بين النقل والعقل، وبين الظاهر والباطن بصورة منهجية متكاملة .

المقدمة

يُعدّ القرآن الكريم – مصدر هداية إلهية شامل – حاويًا لنظم متكاملة متغيّرة بحسب المرحلة التاريخية في مجالات العقيدة والتربية والأخلاق والتشريع والثقافة. ومن ثم، فإن فهم المقاصد الإلهية من نزول الآيات والسور يتطلب بالضرورة الرجوع إلى السياقات التاريخية والاجتماعية للنزول، والتمييز بين مرحلتي السور المكية والمدنية .

على الرغم من الاهتمام الواسع بتقسيم السور إلى مكية ومدنية على المستوى التاريخي والتشريعي، فإنّ الدراسات الإمامية التي ركّزت بشكل منهجي ومقارن على الأهداف التربوية والتعليمية بين المرحلتين – معتمدةً تفاسير إمامية مرجعية تجمع بين النقل والعقل – ما زالت محدودة نسبيًا. وتكمن الحاجة العلمية لهذا البحث في سدّ هذه الثغرة واستخلاص نموذج تربوي قرآني متكامل يخدم التربية الإسلامية المعاصرة. لذا تبرز الإشكالية المركزية للبحث في السؤالين الآتيين : ما التحولات التربوية والتعليمية التي طرأت على محتوى القرآن الكريم بين المرحلة المكية والمدنية؟ وكيف يمكن استخلاص نموذج تربوي متكامل من هذا التحول يخدم التربية الإسلامية المعاصرة؟

أهداف البحث يهدف البحث إلى:

1. تحديد الأهداف التربوية والتعليمية البارزة في السور المكية والمدنية .
2. مقارنة هذه الأهداف بين المرحلتين وبيان طبيعة التحول والتكامل بينهما .
3. بناء نموذج تربوي قرآني متكامل يربط المقاصد الإلهية بمتطلبات بناء الفرد والمجتمع في كل مرحلة.
4. تقديم رؤى تطبيقية لتوظيف هذا النموذج في برامج التربية والتعليم الإسلامي المعاصر .

يقتصر البحث على دراسة الأهداف التربوية والتعليمية فقط دون التوسع في الأهداف العقائدية أو التشريعية أو السياسية إلا بقدر ارتباطها المباشر بالجانب التربوي، ويعتمد حصريًا على تفسيرَي «مجمع البيان في تفسير القرآن» للعلامة الطبرسي و«الميزان في تفسير القرآن» للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، لما يتميزان به من جمع متوازن بين النقل والعقل وبين الظاهر والباطن .

اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي المقارن من خلال الخطوات الآتية : جمع النصوص التفسيرية المتعلقة بأهداف السور من المصدرين، ثم تصنيف الأهداف التربوية حسب محاور محددة (تربية الفرد، بناء الأسرة، تنشئة المجتمع، مناهج التلقي والتعليم)، ثم تحليل كل هدف في ضوء سياق النزول ومرحلة الدعوة، فمقارنة الأهداف بين المرحلتين وفق معايير الاختيار الآتية : الارتباط الصريح بالتربية أو التعليم، والتركيز الواضح في التفسيرين، وإمكانية الاستفادة التطبيقية المعاصرة، وأخيرًا استخلاص نموذج تربوي متكامل يبين التحول والتكامل بين المرحلتين .

يتكون البحث من مقدمة ومبحثين رئيسيين وخاتمة:

- المبحث الأول: المنظور التربوي والتعليمي للسور المكية والمدنية (بنية السور، أهمية التمييز، معايير التمييز ومضامينها التربوية) .
- المبحث الثاني: مقاربات تفسيرية تربوية في «الميزان» و«مجمع البيان» (أهداف السور وخصائصها، المنهج التعليمي، أسباب النزول ودورها التربوي) .
- الخاتمة: النتائج والتوصيات .

إنّ أهمية هذا البحث لا تكمن في تعميق فهم المقاصد القرآنية فحسب، بل تمتد إلى تقديم رؤية تربوية قرآنية قابلة للتوظيف العملي في برامج التعليم والتربية الإسلامية اليوم .

المبحث الأول

المنظور التربوي والتعليمي للسور المكية والمدنية في تفسيرَي «الميزان» و«مجمع البيان»

المفاهيم: الأهداف العلمية والتربوية

يُقصد بـ«الأهداف العلمية والتربوية» في هذه الدراسة تلك الغايات والمقاصد الإلهية التى يستنبطها الباحث من السور المكية والمدنية عند قراءتها في ضوء تفسيرى «الميزان» و«مجمع البيان»، مع التركيز على البعد التربوي والتعليمي دون الخوض في الأبعاد العقائدية أو التشريعية إلا بقدر ارتباطها المباشر بهذا البعد.

وتنقسم هذه الأهداف على قسمين رئيسيين وفقاً لمرحلتى النزول:

1. الأهداف التربوية والتعليمية في السور المكية :

تركّز السور المكية – كما يُبرزها التفسيران – على تربية الفرد عقيدةً وخُلقاً وروحاً في ظل الضعف والاضطهاد. فهى تبدأ بتزكية النفس وتقرير أصول الإيمان (التوحيد، النبوة، المعاد)، وتهدف إلى إيقاظ الضمير، وتقوية الصبر، وتهذيب الأخلاق، وإزالة الشرك والأوهام. وهي بذلك تمثّل المرحلة التمهيدية والتأسيسية في المنهج التربوي الإلهي، حيث يكون الخطاب عامّاً موجّهاً إلى «يا أيّها الناس»، وتغلب فيه أساليب الترغيب والترهيب والقصص لإقناع العقل والقلب معاً .

2. **الأهداف التربوية والتعليمية في السور المدنية :**

تنتقل السور المدنية – كما يُظهر التفسيران – إلى تربية الأمة تنظيماً وتشريعاً وتمكيناً في ظل الدولة والمجتمع. فهى تركّز على بناء الأسرة والمجتمع على أسس العدل والرحمة والشورى والقوة، وتفصّل الأحكام الاجتماعية والأخلاقية والقانونية، وتُدرّب المؤمنين على الالتزام الجماعي والمسؤولية الاجتماعية. وهي بذلك تمثّل المرحلة التكميلية والتطبيقية في المنهج التربوي الإلهي، حيث يكون الخطاب خاصّاً موجّهاً إلى «يا أيّها الذين آمنوا»، وتغلب فيه أساليب التوجيه والتأديب والتنظيم السلوكي .

المطلب الأول

البنية التربوية في تصنيف السور المكية والمدنية

شهدت كتب علوم القرآن عبر العصور اهتماماً واسعاً بتحديد ضوابط التمييز بين السور المكية والمدنية، وقد تنوّعت آراء العلماء في ضبط مفهوم «المكي» و«المدني»، فظهرت ثلاثة اتجاهات رئيسية تُعبّر عن اختلاف مناهج النظر إلى النصّ القرآني ومقاصده وسياقاته. أما الاتجاه الأول فقد استند إلى معيار المكان، والثاني إلى هوية المخاطبين، أما الاتجاه الثالث – وهو القول المشهور والمعتمد عند جمهور العلماء والمفسرين – فيجعل من الهجرة النبوية (صلى الله عليه وآله وسلم) الحدّ الفاصل بين المرحلتين. فكل ما نزل من الوحي قبل الهجرة يُعدّ مكّياً، وكل ما نزل بعدها يُعدّ مدنياً، حتى وإن نزل في مكة في مناسبات لاحقة كالفتح أو حجة الوداع (معرفت، 1427هـ، ج2، ص213) .

تكمن أهمية هذا التمييز – من الناحية التطبيقية – في أمرين أساسيين:

أولاً: معرفة الناسخ والمنسوخ، إذ إنّ تحديد التاريخ الزمني للنزول يُعين على رفع التعارض الظاهري بين الآيات وفهم تطور الأحكام والتربية الإلهية.

ثانياً: إدراك تطوّر الخطاب التربوي والتعليمي للقرآن نفسه، حيث انتقل الوحي من مرحلة تأسيس الفرد عقيدةً وأخلاقاً وتربيةً روحية في مكة، إلى مرحلة بناء الأمة وتنظيم المجتمع وتربية الجماعة في المدينة .

وقد أشار العلامة الطباطبائي في «الميزان» صراحة إلى هذا البعد التربوي فقال: «إنّ معرفة ترتيب النزول والتمييز بين المكي والمدني ممّا يعين على فهم السيرة النبوية موضوعياً شاملاً، ويكشف تدرج الرسالة في بناء الفرد ثم المجتمع، وتطور التربية الإلهية من مرحلة الدعوة الفردية إلى مرحلة الدولة والأمة» (الطباطبائي، 1417هـ، ج13، ص235) ، كما ذكر العلامة الطبرسي في مقدمة «مجمع البيان» أن السور المكية «غالباً ما تتعلق بتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق وتقرير أصول الإيمان»، بينما المدنية «تركز على تنظيم المجتمع وبيان الأحكام وتربية الأمة وإصلاح أحوالها» (الطبرسي، 1403هـ، ج1، ص18–19). وهذان النصان يكشفان بوضوح أنّ التمييز بين المكي والمدني ليس مجرد تصنيف تاريخي، بل هو مفتاح منهجي لفهم التحول التربوي في الخطاب القرآني .

الفرع الأول

التناسق، الانسجام، والغرض في سور القرآن الكريم وأثره التربوي

تميَّز القرآن الكريم بخاصية فريدة في بنيته النصية تتمثل في تقسيمه إلى سور مستقلة تحمل كل منها عنواناً خاصاً ومضموناً متماسكاً، خلافاً لكثير من النصوص السماوية والأدبية الأخرى التي تأتي على هيئة متصلة دون فواصل واضحة، وقد اقتضت الحكمة الإلهية تقسيم هذا الكتاب العظيم على وحدات موضوعية تُعرف بالسور، تُرتَّب فيها الآيات وفق سياق دقيق يراعي المعاني والمقاصد المرتبطة بها، مما جعل هذا التقسيم أحد أبرز أوجه الإعجاز البياني والتشريعي (نخبة من العلماء، 1431هـ، ج5، ص268) .

ينبغي التأكيد – قبل التعمق في مسألة الانسجام الداخلي للسور – على أن ترتيب الآيات داخل السورة الواحدة أمر توقيفي لا مدخل فيه للاجتهاد البشري، بل هو من وحي الله وتوجيه النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن هنا ينشأ السؤال الجوهري: هل كان هذا الترتيب قائماً على حكمة وغرض محدد؟ والجواب قطعي بالإيجاب؛ ذلك أن كل فعل إلهي لا يخلو من حكمة بالغة، لا سيّما إذا تعلق الأمر بكلام الله المنزل، وعليه فإن توزيع الآيات وترتيبها داخل السور إنّما يحمل أسراراً بلاغية ومقاصدية عظيمة تمتد من الجمال اللفظي إلى البناء المعرفي والهدف التربوي المتكامل (مركز الثقافة والمعارف القرآنية التابع لمؤسسة العلوم والثقافة الإسلامية – إيران، 1382هـ ش، ج3، ص563؛ ج8، ص665) .

وقد أبرز العلامة الطباطبائي في «الميزان» هذا البعد التربوي بقوله: «إن كل سورة نزلت لغرض خاص، وآياتها مترابطة ترابطاً عضوياً يخدم هذا الغرض، والسورة وحدة حية لا تكتمل إلا بجميع أجزائها، فهي تؤدي دوراً تربوياً متكاملاً يبدأ بإيقاظ النفس وينتهي بتوجيهها توجيهاً عملياً» (الطباطبائي، 1417هـ، ج1، ص9–10؛ ج4، ص123–124). وفي السياق نفسه، أشار العلامة الطبرسي في «مجمع البيان» إلى أن كثيراً من السور تدور على محور تربوي واحد، وأن ترتيب آياتها يخدم غرضاً محدداً في تربية النفس أو إصلاح المجتمع بحسب مرحلة النزول (الطبرسي، 1403هـ، ج1، ص37؛ ج10، ص412). ومن الأمثلة البيّنة على ذلك سورة العلق – أول ما نزل مطلقاً – التي بدأت بالأمر بالقراءة تأسيساً لمنهج التربية بالعلم، ثم حذَّرت من الطغيان، ثم خُتمت بالأمر بالسجود؛ فكانت في خمس آيات فقط وحدة تربوية كاملة تجمع بين التنبيه العقلي والتهذيب الأخلاقي والتوجيه العبادي .

إنّ هذا التناسق والانسجام الداخلي يجعل كل سورة وحدة موضوعية متكاملة تشبه – بتعبير معاصر – الدرس التربوي المنظم أو المقال العلمي: يبدأ بتمهيد يوقظ المتلقي ويهيئ نفسه، ثم يعرض المادة التربوية بتدرج منهجي، ثم يختم بنتيجة عملية توجه السلوك وتثبت القيم. وهذا التركيب هو ما يمنح السورة فعاليتها التربوية العالية حتى اليوم؛ إذ يُعلّم المتلقي التفكير المنظّم بدل التفكير المجتزأ، ويدربه على التدرج في التلقي والعمل كما تدرج الوحي نفسه بين المرحلتين المكية والمدنية، ويحقق أثراً نفسياً وأخلاقياً أعمق لأن الرسالة تُقدَّم في وحدة موضوعية وزمنية واحدة. ومن ثم فإن فهم بنية السورة وغرضها التربوي الواحد – مع مراعاة كونها مكية أو مدنية – يشكل مدخلاً عملياً مهماً لتطوير مناهج التربية والتعليم الإسلامي المعاصر، لأنه يكشف عن المنهج الإلهي المتدرج في تربية الفرد أولاً ثم بناء الأمة ثانياً، ويُبرز كيف أنّ معرفة المكي والمدني ليست مجرد تصنيف تاريخي، بل هي مفتاح لفهم تطور الخطاب التربوي القرآني وتطبيقاته في كل عصر .

الفرع الثاني

أسباب وفوائد التمييز بين السور المكية والمدنية في ضوء الأهداف التعليمية

يُعدّ التمييز بين السور المكية والمدنية من الموضوعات المفصلية والمفيدة في علم الدراسات القرآنية، لما له من آثار علمية ومنهجية تتجاوز مجرد معرفة زمان ومكان النزول. فلم يقتصر هذا التمييز على الأبعاد التاريخية والجغرافية للنصّ، بل امتدّ تأثيره ليشمل المجالات التفسيرية، والاجتهادات الفقهية، والبنى الكلامية للعقيدة الإسلامية، إذ يُعتبر عاملاً مرجحاً في كثير من القضايا الخلافية التي شغلت أذهان العلماء في مجال التفسير وعلوم القرآن.

وقد برزت أهمية هذا العلم على نحوٍ خاص في ما يتعلق بكشف مقاصد السور، وهي ناحية لطالما أغفلها كثير من الباحثين رغم أهميتها الجوهرية. فمعرفة ما إذا كانت السورة مكية أو مدنية تفتح آفاقاً جديدة لفهم الغرض الرئيس من نزولها، وذلك من خلال تحليل السياق الزمني والاجتماعي الذي نزلت فيه، والموضوعات التي عالجتها السورة ضمن ذلك الإطار. فضلًا عن ذلك إنّ جمهور المفسرين اعتمد في تحديد مكية أو مدنية السورة على معيار الزمن – أي ما إذا كانت قد نزلت قبل الهجرة النبوية أو بعدها بصرف النظر عن المكان – وهو المعيار الأرجح والأكثر شيوعاً بين العلماء، نظراً لوضوحه وسهولة تطبيقه على مجمل النصوص القرآنية.

ومن أجل تيسير عملية التمييز، رصد العلماء خصائص شكلية ومضمونية تميّز السور المكية عن المدنية، مثل طبيعة الموضوعات، وأسلوب الخطاب، ونوعية المخاطَبين. فالسور المكية غالباً ما تركّز على تقرير التوحيد، والمعاد، وبيان عظمة الله، ومجادلة المشركين، والدعوة إلى الإيمان، وإيراد العبر التاريخية والسنن الكونية. أما السور المدنية فتركّز على التشريعات، وتنظيم العلاقات الاجتماعية، ووضع الأسس القانونية والسياسية للمجتمع الإسلامي، مع معالجات تفصيلية للجهاد، والحدود، والمعاهدات، وسلوك المنافقين. إن سورة الكوثر (مكية قصيرة) جاءت تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) وتثبيتاً لنفسه في مواجهة استهزاء المشركين، بينما سورة البقرة (مدنية طويلة) تناولت قضايا الأمة الوليدة من تغيير القبلة والصيام والزكاة والجهاد والمعاملات، مما يكشف بوضوح الانتقال من تربية الفرد إلى تربية الجماعة.

وبهذا يُمكن القول إنّ معرفة مكية أو مدنية السورة ليست معلومة تاريخية فحسب، بل هي مفتاح منهجي يساعد على فهم أعمق للرسالة التي تحملها السورة وللمقاصد التربوية والاجتماعية والتشريعية التي جاءت لتحقيقها. ومن أبرز تطبيقاتها العلمية والعملية:

1. المساعدة في تفسير القرآن الكريم، إذ إن فهم دقائق الإشارات القرآنية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بسياق النزول، فمعرفة الآيات المكية والمدنية تعين المفسّر على إدراك مقاصد الخطاب المرحلية (قطب، 1408هـ، ج6، ص3583).
2. معرفة الناسخ والمنسوخ بضوابط دقيقة، فالقضية – على الرغم من كونها من أكثر المسائل إثارة للجدل – لا يجوز فيها التوسّع دون تقيّد تاريخي أو مذهبي. مثال تطبيقي فقهي وكلامي: تحوّل تشريع القتال من النهي والصبر في السور المكية (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ في سياق مكي، و فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) إلى الإذن المقيّد ثم الأمر في المدنية (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ثم وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ

اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ). معرفة الترتيب الزمني هنا تُجنّب المبالغة في النسخ وتكشف عن تدرّج تربوي حكيم يراعي استعداد المجتمع (صالح، 1424هـ، ج63) .

3. فهم التدرج التشريعي والتطور القانوني الذي يعكس تغيّر الظروف الاجتماعية والزمنية (مدرس، 1435هـ، ج1، ص37).
4. معرفة أسباب النزول وسياقاتها الزمانية والمكانية (شحاته، 1421هـ، ج15، ص2774) .

وأما الخطاب التربوي والتعليمي تحديداً، فإن التمييز بين المكي والمدني يكشف عن منهج تربوي إلهي متكامل ومتدرج: بدأ بتزكية النفس وتقرير العقيدة والأخلاق في ظل الضعف والاضطهاد (المكي)، ثم انتقل إلى بناء الأسرة والمجتمع والدولة على أسس العدل والرحمة والشورى والقوة (المدني). وهذا التدرج هو عين الحكمة التربوية التي ينبغي استلهامها اليوم في تصميم البرامج التربوية والتعليمية الإسلامية، حيث نبدأ بتربية الضمير والقلب قبل إلزام الجوارح، ونراعي استعداد المتلقّي وقدرته على التحمّل تماماً كما راعى القرآن ذلك في مرحلتي الدعوة.

الفرع الثالث

معرفة السور المكية والمدنية وأثرها في بناء الوعي التربوي

يُعدّ التمييز بين السور المكية والمدنية من المسائل الأساسية والمحورية في علوم القرآن، لما له من آثار متعددة ومتشعبة على مختلف مجالات المعرفة الإسلامية، سواء في فهم التاريخ الإسلامي، أو استنباط الأحكام الشرعية، أو تحليل البنية العقدية للنص القرآني، ولعل أبرز هذه الآثار وأكثرها ارتباطاً بموضوع البحث هو دوره في تعزيز الوعي التربوي لدى المتلقي والمربي معاً. وفيما يلي عرض لأهم الدوافع التي تجعل هذا التمييز ضرورة معرفية وتربوية لا غنى عنها:

أولاً: إنّ التعرف على السور المكية والمدنية يُعدّ مدخلاً أساسياً لفهم تاريخية النص القرآني وتدرّج نزوله، مما يُسهم في بناء رؤية دقيقة لمراحل التربية الإلهية. فالإنسان بطبعه يميل إلى تتبع الحوادث في أزمنتها وأمكنتها، ولا يمكن فهم المنهج التربوي القرآني بشموليته إلا من خلال تتبع انتقال الخطاب من مرحلة تأسيس الفرد (مكية) إلى مرحلة بناء الأمة (مدنية).

ثانياً: في علم الكلام، تُستخدم الآيات القرآنية كثيراً في الاستدلال على قضايا محورية كالإمامة والولاية وفضائل أهل البيت (عليهم السلام)، ومعظم هذه الآيات نزل في المدينة حيث صارت هذه الموضوعات مطروحة اجتماعياً وسياسياً. فإذا نُسبت آية أو سورة إلى الفترة المكية دون دليل قطعي، أُسقطت كدليل

عقدي، ومن أبرز الأمثلة سورة الإنسان (الدهر) التي دار حولها خلاف كبير، وقد رجّحت الغالبية مدنيتها الكاملة (نخبة من العلماء، 1431هـ، ج8، ص506)، وهو الرأي الأكثر انسجاماً مع مضمونها المتعلق بفضل أهل البيت (عليهم السلام) وتشريع الإطعام والنذر في سياق مجتمع مدني منظَّم .

ثالثاً: في مجال الفقه وأصول الاستنباط، تُعدّ معرفة مكية أو مدنية الآية مفتاحاً لفهم طبيعتها التربوية والتشريعية معاً. فقد تحمل الآية في ظاهرها حكماً، لكن نزولها في مكة يُشير إلى أنها جاءت لتهيئة النفوس وتربيتها قبل التشريع الفعلي. مثال ذلك: آيات القتال المكية التي أمرت بالصبر والصفح ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾، فلا يجوز حملها على وجوب الصبر مطلقاً بعد أن جاء التشريع المدني بالجهاد، بل هي خطوة تربوية أولية لتقوية الإرادة وتربية النفس على التحمّل قبل تحمّل مسؤولية الدولة .

رابعاً: مسألة النسخ – التي بالغ فيها البعض حتى جاوز عددها المائتين، بينما نفاها آخرون نفياً مطلقاً – لا يُمكن حسمها علمياً إلا بالرجوع إلى السياق الزمني الذي يوفّره التمييز بين المكي والمدني. فمعرفة إنّ آية معينة مكية وأخرى مدنية تكشف عن تدرّج تربوي حكيم وليس نسخاً عشوائياً، وتحول دون المبالغات التي شوهت صورة التشريع القرآني في أذهان كثيرين .

خامساً: وأخيراً، وعلى المستوى التربوي المباشر، يُعزّز هذا التمييز الوعي بأن القرآن كتاب تربية متكاملة وليس مجرد نصوص متفرقة. فالمرحلة المكية ركّزت على تربية الفرد على التوحيد والصبر والتزكية في ظل الضعف، بينما ركّزت المرحلة المدنية على تربية الأمة على العدل والقوة والتنظيم في ظل التمكين. وهذا التدرج هو نفسه النموذج الذي ينبغي أن نتبعه اليوم في برامجنا التربوية: أن نبدأ بتزكية القلوب قبل تنظيم السلوك، وأن نراعي استعداد المتلقي وقدرته على التحمّل تماماً كما راعى القرآن ذلك على مدى ثلاث وعشرين سنة .

الفرع الرابع

معايير التمييز بين السور المكية والمدنية ومضامينها التربوية

من خلال الروايات المتعددة حول ترتيب نزول سور القرآن الكريم يُستنتج أن عدد السور المكية يبلغ ستاً وثمانين (86) سورة، بينما السور المدنية ثمانٍ وعشرين (28) سورة فقط. وقد اعتمد العلماء والمفسرون في تصنيف السور ثلاثة معايير أساسية هي: معيار الزمان، ومعيار المكان، ومعيار الخطاب. وكل معيار من هذه المعايير لا يكتفي بتقديم أداة تصنيفية، بل يكشف في الوقت نفسه عن بُعد تربوي وقيمي واضح يعكس المنهج الإلهي في تربية الفرد والأمة.

أولاً: معيار الزمان (الأرجح والأكثر شيوعاً)

يجعل الهجرة النبوية (صلى الله عليه وآله) الحدّ الفاصل: كل ما نزل قبل دخول النبي المدينة فعلياً مكي، وما نزل بعده مدني، حتى لو كان المكان مكة نفسها بعد الفتح .مثال توضيحي: الآية ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ (القصص: 85) نزلت في الطريق بين مكة والمدينة، فتُعدّ مكية لأنها سبقت الدخول الفعلي إلى يثرب. يُعلّمنا هذا المعيار أن التربية الإلهية تدرّجية، وأن الانتقال من مرحلة الضعف والصبر (مكية) إلى مرحلة التمكين والتنظيم (مدنية) يحتاج إلى استعداد نفسي واجتماعي حقيقي، لا مجرد تغيير جغرافي.

ثانياً: معيار المكان

كل ما نزل في مكة أو ضواحيها مكي، وكل ما نزل في المدينة أو ما حولها مدني، بغض النظر عن الزمن. وما نزل خارج الإقليمين (مثل تبوك أو الحديبية) لا يُطلق عليه مكي ولا مدني .مثال توضيحي: آيات سورة الفتح نزلت في الحديبية وهي خارج مكة والمدينة، فلا تُصنّف مكية ولا مدنية بهذا المعيار .المضمون التربوي والقيمي: يُبرز أن التربية القرآنية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالبيئة والظرف المحيط، وأن الرسالة الإلهية تتكيّف مع الواقع المكاني لتُعلّم المؤمنين الصبر في الضيق (مكة) والعدل في الاتساع (المدينة)، وهو درس عملي في مراعاة السياق عند تصميم أي برنامج تربوي .

ثالثاً: معيار الخطاب يُنظر إلى طبيعة المخاطَب الغالب في السورة: فكل سورة يكثر فيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مكية، وكل سورة يكثر فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مدنية. فسورة الرحمن تبدأ بـ ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ ثم تخاطب الإنس والجن بـ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وتكرر ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ضمنياً، فتُعدّ مكية، بينما سورة الحجرات تكرر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تسع مرات فهي مدنية .المضمون التربوي والقيمي: يكشف عن تحول الخطاب التربوي من الدعوة العامة والترغيب والترهيب (مكية) إلى التوجيه الخاص والتأديب والتنظيم السلوكي (مدنية)، فيُعلّمنا أن التربية تبدأ بالدعوة الرحيمة الشاملة ثم تنتقل إلى التربية الدقيقة الموجّهة للمؤمنين بعد أن يستجيبوا.

ومع أهمية هذه المعايير الثلاثة، إلا أنّه لا يمكن الاعتماد على أحدها منفرداً في التمييز الدقيق بين المكي والمدني، إذ إنّ كلاً منها – على انفراده – غير جامع مانع، وإنما ينبغي النظر إليها جميعاً في سياقٍ تراكمي ومقارن، للتوصل إلى تحديدٍ أقرب إلى اليقين.

المطلب الثاني

مقاربات تفسيرية تربوية في الميزان ومجمع البيان

الفرع الأول

أهداف السور وأهم خصائصها التربوية في تفسير الميزان

السور المكية

تتميز السور المكية، التي نزلت في مكة المكرمة خلال المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية، بجملة من الخصائص التي تعكس طبيعة السياق الاجتماعي والديني الذي واجهته الدعوة في بداياتها. تُركز هذه السور على الأصول الثلاثة للدين التوحيدي، وهي تنزيه الله تعالى عن أي نقص، والإيمان بالله واليوم الآخر، والنبوة التي تُجسدها دعوة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بوصفها رسالة إلهية.(طباطبايى، 1417، ج 17، ص 62) تتناول هذه السور حال المشركين والمعارضين للدعوة(طباطبايى، 1417، ج 15، ص 1118)، إذ تُبطل أوهامهم وتُبيّن عبث مساعيهم في التمسك بالشرك، وتُنذرهم بعقاب قريب ينتظرهم نتيجة كفرهم.(طباطبايى، 1417، ج 2، ص 325) تتضمن السور المكية آيات تحمل مواضع السجود التي تُعزز الشعور بعظمة الله(طباطبايى، 1417، ج 19، ص 26)، وتُعدّ كل سورة ورد فيها لفظ «كَلَّا» مكية، كما تُعتبر السور التي تبدأ بالحروف المقطعة، مثل «الم»، «الر»، «طسم»، و«حم»، مكية أيضًا، وهي إشارة إلى الإعجاز القرآني الذي تحدى به العرب.(طباطبايى، 1417، ج 8، ص 6) تتميز هذه السور بقصرها من حيث الطول، وهو ما يتناسب مع طبيعة المرحلة التي كانت تحتاج إلى خطاب موجز ومؤثر. من الناحية الموضوعية، تُركز الآيات المكية على التوحيد وتطهير المجتمع من عبادة الأصنام والشرك(طباطبايى، 1417، ج 3، ص 247)، بينما تظل التشريعات والسنن القانونية نادرة، إذ كان الهدف الأساسي هو بناء قاعدة عقائدية راسخة. تتضمن هذه الآيات كثيرًا من قصص الأنبياء وسيرهم، مما يُوفر عبرة وتذكيرًا للمشركين، وتتسم بالبلاغة المدهشة والإعجاز اللغوي الذي يُبرز معجزة القرآن ويُثبت حقانيته وصدق رسالته.(طباطبايى، 1417، ج 14، ص 244) تتناول هذه الآيات موضوعات التوحيد، النبوة، والمعاد(طباطبايى، 1417، ج 7، ص 5)، وتُبيّن الواجبات الشرعية والمحرمات الدينية، مع الإشارة إلى عودة الناس جميعًا إلى الله تعالى في الآخرة.(طباطبايى، 1417، ج 8، ص 90) كما تتحدث عن النعم السماوية والأرضية، مثل المطر والأرزاق، لتُذكّر الناس بنعم الله التي يجب شكرها.(طباطبايى، 1417، ج 17، ص 5) يتم التذكير والتنبيه في هذه الآيات بأسلوب الإنذار، حيث تُذكّر بصفات المؤمنين الحميدة، مثل الصبر والإيمان، وتُبرز الرذائل الأخلاقية والأعمال القبيحة للكفار، كالكبر والعناد، لتُبيّن حقيقة الإيمان.(طباطبايى،

1417، ج 15، ص 5) تُبرز هذه الآيات الصفات الخاصة بالله سبحانه وتعالى، مثل العلم والقدرة، وتدعو إلى العمل بجوامع الشريعة، مع الإشارة إلى مسألة الوحي بوصفه الوسيلة التي تنقل الرسالة الإلهية إلى البشرية.(طباطبايى، 1417، ج 18، ص 154–162)

السور المدنية

تتميز السور المدنية، التي نزلت في المدينة المنورة بعد هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم)، بجملة من الخصائص التي تعكس مرحلة بناء الدولة الإسلامية وتنظيم شؤون المجتمع المسلم. يُبرز القرآن الكريم في هذه السور معجزته بوصفه آية على صدق الرسالة المحمدية، حيث يدعو المؤمنين إلى التوحيد ويخاطبهم بإقامة الصلاة وأداء فريضة الحج والعمل الصالح والتعاون، مع الإذن بالقتال والجهاد للدفاع عن الدعوة.(طباطبايى، 1417، ج 14، ص 338) تُعدّ صفات المؤمنين في هذه السور نعمة وكرامة، بينما تُصوّر صفات الكفار كنقمة وعذاب ينتظرهم. (طباطبايى ، 1417، ج 18، ص 223) تُشجّع هذه السور المؤمنين على التوحد السريع والاستعداد لمواجهة الأعداء من اليهود والنصارى والمشركين، مع الأمر بالصبر على الشدائد والوفاء بالعهود والثبات على المواثيق.(طباطبايى ، 1417، ج 14، ص 119) تتضمن السور المدنية الفرائض والحدود الشرعية، مثل أحكام تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة وأحكام الحج والإرث(طباطبايى ، 1417، ج 3، ص 42). تتميز هذه السور بطولها النسبي مقارنة بالسور المكية، حيث تتضمن آيات طويلة تتناسب مع طبيعة المرحلة التشريعية، ومن أبرز خصائصها بيان القوانين الحضرية والقضائية والاجتماعية والحكومية، فضلًا عن أحكام الحرب والسلم.(طباطبايى ، 1417، ج 15، ص 325) تتضمن الآيات المدنية خطابًا مباشرًا يبدأ غالبًا بـ«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»، مما يعكس وجود مجتمع إسلامي متماسك.(طباطبايى ، 1417، ج 19، ص 329) تُبيّن هذه الآيات فساد عقائد أهل الكتاب وتدعوهم إلى الإسلام، كما تتناول أحوال المنافقين وأفعالهم وموقف المسلمين والنبي (صلى الله عليه وسلم) منهم، مما يعكس التحديات الداخلية التي واجهت المجتمع الإسلامي.(طباطبايى ، 1417، ج 20، ص 6) تُعالج السور المدنية أحكام الدين والمعارف الإلهية، وتُؤكد أن كل ما في هذا العالم من ذات أو أثر هو من نعم الله تعالى، وأن الكون بأسره من الدنيا إلى الآخرة يخضع لنظام واحد تترابط فيه أجزاء هذا العالم مع أجزاء العالم الآخر، وتتكامل أجزاؤه على أسس راسخة.(طباطبايى ، 1417، ج 7، ص 235–238) تُبيّن هذه السور سنة الهداية والرسالة النبوية التي جاءت لإرشاد البشرية إلى الحق وإقامة مجتمع عادل.

الفرع الثاني

المنهج التعليمي في تفسير القرآن في مجمع البيان

إن تفسير «*مجمع البيان*»، هو من أعظم التفاسير الشيعية، ألّفه الفضل بن الحسن الطبرسي في أواسط القرن السادس الهجري (سنة ٥٣٦ هـ)، ويُعدّ من أرقى التفاسير وأعمقها من حيث التحقيق العقلي والنقلي، وقد ظهر في عصر قريب من عصر تدوين تفسير الزمخشري المعروف بـ«*الكشاف*»، إلّا أنّه يتفوّق عليه في رجاحة الرأي وسداد النظر .

وقد أثنى عليه محمد حسين الذهبي، صاحب *التفسير والمفسرون*، قائلًا: «الطبرسي هو أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل، من أعلام التفسير عند الشيعة، كان محدثًا، فقيهًا، ثقةً، جليلًا، كاملًا، ذكيًّا، حريًّا بالثناء».(ذهبى، القرن ١٤، ج 2، ص 99)

ما يميز تفسير مجمع *البيان* هو التوازن بين العقل والنقل؛ إذ لم يقتصر الطبرسي في تفسيره على المباحث العقلية، بل استعان في كثير من المواضع بروايات المعصومين عليهم السلام، وقد وصف بعض الباحثين هذا التفسير بقولهم: «ما يميزه هو أنّه لا يكتفي بالعقل، بل يولي الروايات اهتمامًا خاصًا ضمن منهج متوازن معتدل، ويعتمد في النقل على روايات العامة والخاصة على حدّ سواء.

وقد كتب الطبرسي في مقدمة تفسيره مؤكدًا خطورة الكلام في القرآن بغير علم، ناقلًا عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: « مَنْ قَالَ فِي اَلْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ أَوْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ اَلنَّارِ».(ابن‌ابى‌جمهور، 1403، ج 1، ص 174)

ويرى الطبرسي أنّ وسيلة هداية الناس تكمن في أمرين: كتاب الله، وعترة النبي (صلى الله عليه وآله)، ويذكر في هذا السياق حديث الثقلين المعروف، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ اَلثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ اَللَّهِ ، وَ عِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، فَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ اَلْحَوْضَ ».(حر عاملى، بى‌تا، ج 2، ص 191)

هذه الروايات وما تحمله من مضامين هادفة، فضلًا عن التزام الطبرسي العملي بنقل الروايات، تدل على الأهمية الكبرى التي يوليها تفسير مجمع *البيان* للحديث النبوي الشريف، لا سيّما في تفسير الأهداف التربوية والهداية العامة للقرآن الكريم .

الفرع الثالث

الاهتمام بسند الروايات وأثره في التربية العقدية

لقد أولى العلّامة الطبرسي اهتمامًا بالغًا بصحة الأخبار وتوثيق الروايات في تفسيره «مجمع البيان»، فلم يكن يعتمد في تفسير القرآن إلّا على الأخبار الصحيحة والنصوص الصريحة. وقد صرّح بنفسه بذلك، حيث قال:«واعلم أنّ الخبر قد صحّ عن النبي صلى الله عليه وآله، وعن الأئمّة القائمين مقامه عليهم السلام، إنّ تفسير القرآن لا يجوز إلّا بالأثر الصحيح والنص الصريح».(طبرسى، 1408، ج 1، ص 80)

وبناءً على هذا الأصل المنهجي الصارم، فإنّ الطبرسي لا يستشهد إلّا بالروايات التي يراها موثوقة من حيث السند، ولهذا السبب لم يروِ في تفسيره عن *تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام*، رغم شهرة هذا التفسير في بعض الأوساط، وذلك لعدم ثبوت نسبته إلى الإمام عليه السلام من وجهة نظره. ومن المحتمل أيضًا أنّ هذا التفسير لم يكن متوفرًا لديه، إلّا أنّ احتمال عدم اعتماده على هذا التفسير بسبب ضعف السند وقلة الوثوق به أقوى وأرجح .

هذا المنهج يدلّ على دقّته في التعامل مع الأخبار، وحرصه على عدم إدخال ما لم يثبت صحته في فهم كلام الله، وهو ما يمنح تفسيره صبغة علمية عالية، ويضعه في مصافّ التفاسير التي تعتمد على التحقيق والتوثيق لا على النقل المجرّد. وقد أشار بعض الباحثين المعاصرين، إلى هذه الخصوصية في منهج الطبرسي، معتبرين التفسير مثالًا لتوازن العقل والنقل، مع احتراز شديد من الخلط بين الروايات الصحيحة والضعيفة.(فصيحى، 1374، الفقرة 5)

الفرع الرابع

اعتبار عمومية النص كأداة تعليمية وتربوية

يرى العلّامة الطبرسي في تفسيره «مجمع البيان» أنّ نصوص القرآن الكريم ذات دلالة عامة لا تنحصر في مورد النزول، وأنّ سبب النزول لا يُقيّد المفهوم ولا يُلغي عموميته. فالقرآن كتاب هداية شاملٌ للبشرية جمعاء، في جميع العصور والأزمنة، وليس مجرد نصوص نزلت لمعالجة وقائع جزئية تاريخية. وقد عبّر الطبرسي عن هذا المنهج بوضوح عند تفسيره لقوله تعالى: «إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا» (الإنسان: 5) فيذكر أنّه ورد في سبب نزول هذه الآية روايات عن ابن عباس، ومجاهد، وأبي صالح، تفيد أنّها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام)، حين نذروا لله صيامًا، ثم وفوا بنذرهم، فأنزل الله تعالى في حقهم هذه الآيات. إلا أنّ الطبرسي بعد ذكر هذا السبب يضيف: إنّ الآية نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، ولكنها تشمل كلّ من قام بمثل هذا العمل من المؤمنين. فهو هنا يقرر بوضوح أنّ الحكم لا يختص بمن نزلت فيهم الآية، بل يتعدّاهم إلى كلّ من

يندرج في وصفهم، ما دام النص القرآني يتضمّن صياغة عامة، وهذا يتّسق مع المبدأ الأصولي القائل بأنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وفي مثالٍ آخر، يورد الطبرسي تفسيره لقوله تعالى: «الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (البقرة: 274) ويذكر أنّ ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في علي عليه السلام، حيث تصدّق بأربعة دراهم: درهم في الليل، ودرهم في النهار، ودرهم سرًّا، ودرهم علانية. ولكن الطبرسي لا يكتفي بهذا التفسير الخاص، بل يؤكد على شمول الآية لجميع من يقوم بهذا العمل، مع الاعتراف بسبق الإمام علي عليه السلام وتفوقه في هذا المجال.(طبرسى، 1408)

ويخلص الطبرسي إلى أن الآيات القرآنية تُنَزَّلُ على سبب خاص، لكنها تحمل دلالة عامة، قابلة للامتداد عبر الأجيال، وتجد مصاديقها في سلوك كلّ من يندرج تحت الوصف القرآني، بغضّ النظر عن الزمان والمكان. وقد لخّص الباحث علي فصيحي هذا المنهج بقوله: «إنّ الطبرسي يرى أن أسباب النزول لا تحدّ من دلالة الآية، وإنما النص القرآني يحمل في ذاته قابلية العموم والشمول، مما يجعل القرآن صالحًا لكل زمان ومكان».(فصيحى، 1374، الفقرة 6)

المطلب الثالث

التناول التفسيري لأسباب النزول وأثره في التعليم القرآني

يتّسم منهج الطبرسي في نقله لأسباب النزول في تفسيره «مجمع البيان» بطابعٍ تقريريٍّ ، يغلب عليه النقل دون تحليلٍ أو تمحيصٍ نقديٍّ مباشر. ومن أصل أسباب النزول التي وردت في التفسير، وردت معظمها على نحو نقليٍّ محض، دون تعقيب أو ترجيح صريح. وقد أشارت الدراسات الحديثة إلى أنّ الغالب على هذه الأقوال هو النقل المفصّل والمستند إلى مصادر الرواية، بحيث نجد أنّ أكثرها ورد بتفصيلٍ، والباقي أوردها الطبرسي على وجه الإجمال. (فصيحى، 1374، الفقرة 8) ويبدو أنّ الطبرسي قد اتّبع في ذلك منهج جمع الأقوال وإتاحة الفرصة للقارئ للاجتهاد في التمييز بينها، بدلًا من أن يتولّى بنفسه مهمة الحكم والتصويب .

وفي هذا السياق، إنّ الطبرسي ينقل الأقوال والآراء المختلفة دون أن يعمد إلى الجرح أو التعديل، بل يترك الحكم إلى القارئ... وقد يسكت أحيانًا عن أقوال باطلة مخالفة للواقع، كقوله في تفسير آية :«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ...»(البقرة، 114) حيث ينقل رأيًا مفاده أنّ الآية نزلت بشأن تخريب بيت المقدس على يد بُختنصر والنصارى، مع أنّ بُختنصر سبق المسيحية بقرون. ومع أنّ الطبرسي

أدرك بطلان هذا القول . كما يُستشفّ من شرحه لآيات أخرى تتعلّق ببني إسرائيل في سورة الإسراء . فإنّه لم يُعلّق هنا، بل اكتفى بنقل الرأي ضمن سياق أقوال متعددة .

ومن النماذج الأخرى لأسلوبه التقريريّ، ما أورده في تفسير قوله تعالى «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ...» حيث ينقل الطبرسي أقوالًا متعدّدة، منها أنّ الآية نزلت في غزوة الخندق، وقول آخر أنها في غزوة أحد، وقول ثالث في المهاجرين الذين تركوا أموالهم، دون ترجيح بينها .

وفي تفسير قوله تعالى:«الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ...» ينقل أنّها نزلت بشأن جماعة قدموا من الحبشة مع جعفر بن أبي طالب، ويهودٍ آمنوا كعبدالله بن سلام، وأصحاب النبي عامةً، دون أن يحدّد القول الأرجح، مكتفيًا بإيراد الروايات. وهذا النمط التقريري يتكرّر في عشرات المواضع من تفسيره، وقد يكون راجعًا إلى رغبة الطبرسي في جمع الروايات دون الدخول في ترجيحات تفسيريّة قد تفتقر إلى نصوص قطعية، أو مراعاته لاختلافات المفسّرين والروات، مع اعتماد مبدأ السعة والتسامح في عرض الأقوال، ما لم تكن مناقضةً صريحًا لحقائق التاريخ أو أصول الدين .

لكن ينبغي التنبيه إلى أنّ الطبرسي ليس دائمًا على هذه الوتيرة من الحياد، بل عندما يظهر له رجحان قولٍ ما . خاصّة في المعاني العقيدية أو الفقهية أو المرتبطة بفضائل أهل البيت (عليهم السلام) . يتدخّل بوضوح، ويعزّز قوله بالنصوص والتأويلات، كما هو واضح في تفسير آيات الإنفاق، والولاية، والمباهلة، وغيرها .

الفرع الاول

التقرير غير المسند لأسباب النزول بين التعليم والضبط المعرفي

تُعَدُّ التقارير غير المُسندة لأسباب النزول من خصائص منهج الطبرسي في تفسيره، إذ عمد في كثير من المواضع إلى عرض أسباب النزول دون أن يُسنِدها إلى ناقليها. فقد قام في مواضع عديدة بتثبيت أسباب النزول بطريقة موثقة، مبيّنًا أسماء من رواها كابن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد وغيرهم، غير أنّه في عدد من المواضع اكتفى بسرد السبب دون أن يُشير إلى مصدره أو اسم ناقله .

وقد وردت أمثلة عدة على هذا النحو؛ فعند تفسيره لقوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ»(البقرة، 215)، بيّن أنّ الآية نزلت في عمرو بن الجموح، وهو شيخ كريم كان ذا مال وفير، سأل النبيّ (صلى الله عليه وآله): يا رسول الله، كيف أتصدّق؟ وعلى من أتصدق؟ فنزلت الآية .

وعند قوله تعالى: «فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ»(آل عمران، 162)، ذكر أنّ الآية نزلت عندما أمر النبيّ (صلى الله عليه وآله)بالخروج إلى أحد، فخالف المنافقون أمره، وتبعهم بعض المؤمنين وامتنعوا عن الطاعة، فنزلت الآية تنديدًا بهذا التخاذل .

وكذلك حين فسر الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ»(التوبة، 38)، أوضح أنّها نزلت بعد عودة النبيّ (صلى الله عليه وآله) من الطائف، عندما دعا المسلمين إلى الخروج لقتال الروم. وقد صادف هذا النداء موسم الحصاد وشدة الحر، مما جعل الكثير من الناس يترددون في الاستجابة، ولم يُظهر الحماسة للجهاد إلا عدد قليل، فأنزل الله هذه الآيات .

تُظهر هذه الأمثلة بوضوح أنّ الطبرسي كثيرًا ما يكتفي بذكر مضمون السبب دون أن يُبيّن من روى الخبر، مما يجعل هذه المواضع من نوع التقارير غير المسندة. وعلى الرغم من ذلك، لا يُغفل الطبرسي في مواضع أخرى توثيق النقل، ويُفرّق في المعالجة بين ما هو قابل للتأييد بالروايات وبين ما يُروى دون سند واضح .

الفرع الثاني

مكانة نقل أسباب النزول في البناء التربوي للتفسير

احتلّ نقلُ أسباب النزول عند الطبرسي مكانةً متميّزة ضمن منهجه التفسيري، حيث تناولها كقضية مستقلة، كما فعل مع القصص القرآني والنظم، وأفرد لكل منها حيّزًا خاصًا في التفسير، إلا أنّه في بعض المواضع دمج بين هذه المحاور الثلاثة، فجاء تناولها في سياق واحد. فقد ورد في تفسيره لقوله تعالى: «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم...»(النساء، 3) أنّه: «قد وقع اختلاف بين المفسرين في سبب النزول وكيفية النظم الحاصل من هذه الآية، وفي اتصال أجزائها بعضها ببعض. وعند تفسيره لقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»(المائدة، 87)، تناول الطبرسي سبب نزول الآية تحت عنوان «النزول والقصّة»، مشيرًا إلى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله خطب الناس يومًا فذكّرهم بيوم القيامة وأهواله، فغمرتهم مشاعر الخشوع والبكاء. ونتيجة لتلك الموعظة، اجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون، وهم: علي بن أبي طالب، أبو بكر، عبد الله بن مسعود، أبو ذر الغفاري، سالم مولى أبي حذيفة، عبد الله بن عمر، المقداد بن الأسود، سلمان الفارسي، معقل بن مقرن، فضلًا عن عثمان نفسه، وقرّروا تحريم بعض مباحات الدنيا على أنفسهم، والتفرّغ للعبادة. فأقسم علي (عليه السلام) ألّا ينام الليل، إلّا ما شاء الله، وأقسم بلال أن يصوم الدهر كلّه، في حين قرّر عثمان بن مظعون ترك معاشرة زوجته والانقطاع للعبادة، فأنزل

الله عزّ وجلّ هذه الآية تنديدًا بهذا الغلوّ. تُبرز هذه النماذج كيفيّة تناول الطبرسي لأسباب النزول من زاويتين: فتارة يفردها بالعرض المستقل، وتارة يدمجها بالسياق القصصي أو بالنظم، مما يُظهر إدراكه الدقيق للترابط بين مضامين الآيات وسياقات نزولها، ويُضفي على تفسيره بعدًا تحليليًّا يربط النصّ القرآني بوقائع السيرة النبويّة ومواقف الصحابة في تفاعلهم مع النصّ الإلهي.(فصيحى، 1374، الفقرة 10)

الفرع الثالث

توظيف أسباب النزول في التفسير عند الطبرسي: منظور تربوي

اعتمد الطبرسي، في تفسيره للقرآن الكريم، على أسباب النزول بوصفها أداةً مؤيّدة تعزّز مقولاته التفسيرية، ولم يقتصر على ذكرها كأخبارٍ سردية بل دمجها في بنية التحليل التفسيري للنصّ القرآني. فعندما يتناول تفسير آية معيّنة، يعمد أوّلًا إلى بيان المعنى المقصود من الآية بحسب اجتهاده، ثم يدعّمه بالأدلّة من النصوص القرآنية الأخرى والروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته، وفي مواضع عديدة يجعل من سبب النزول دليلاً مؤيّدًا يعزّز وجهة نظره .

فعند تفسيره لقوله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ...» (البقرة: 222)، يبيّن أنّ المراد من الطهارة في قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ»(البقرة: 222) هو الطهارة بالماء، وهو قول جماعة من الإمامية، ويؤيّده – بحسب الطبرسي – سبب النزول الذي ورد بشأنها، ما يدلّ على اندماج التفسير مع السياق المأثور ودعمه له بالأدلة .

وعند معالجته لقوله تعالى: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى»(البقرة: 238)، ينقل آراء متعددة في المراد من «الصلاة الوسطى»، فيُذكر أنّها صلاة الظهر، أو العصر، أو المغرب، أو العشاء، أو الصبح. ثم يورد سبب النزول كمرجّح للرأي الأول، فينقل عن زيد بن ثابت أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) كان يصلّي الظهر في شدة الحرّ، فيشقّ ذلك على بعض أصحابه، ويقلّ حضورهم، فنزلت الآية حثًّا على المحافظة عليها رغم المشقة، ما يدلّ على أنّ المراد بالصلاة الوسطى – في هذا السياق – هو الظهر .

كذلك، عند تفسيره لقوله تعالى: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» (البقرة: 256)، يذكر الطبرسي عدّة أقوال: منها أنها نزلت في أهل الكتاب الذين تُقبل منهم الجزية، ومنها أنها نازلة في الكفّار عمومًا، ومنها أنها تدفع شبهة الإكراه في دخول بعض الناس في الإسلام بعد الحرب، ومنها – وهو القول الذي يرجّحه – أنّها نزلت في واقعة خاصّة تتعلق برجل من الأنصار يُدعى أبو حصين، كان له ولدان قد تأثّرا ببعض التجار الوافدين إلى المدينة، واعتنقا النصرانية وسافرا إلى الشام. فطلب والدُهما

من النبي صلى الله عليه وآله أن يُرغمهما على الإسلام، فنزلت الآية ردًّا على هذا الطلب، مؤكّدةً أنّ الدخول في الدين أمرٌ قلبيّ لا يُكره عليه الإنسان. يتّضح من هذه الأمثلة أن الطبرسي قد استخدم أسباب النزول استخدامًا وظيفيًّا داخل عملية التفسير؛ فلم يوردها على نحوٍ تقريريّ أو سرديّ فحسب، بل وظّفها لإثبات المعنى وتأكيد الرأي، وربط النصّ بالمقام الذي نزل فيه، الأمر الذي يعكس عمقًا منهجيًّا في الجمع بين الدلالة اللغوية للنصّ والسياق الواقعي لنزوله .

الفرع الرابع

ملاك نقد وتحليل أسباب النزول وأثره في تهذيب الفهم التعليمي

تم التذكير سابقاً، عمل العلامة الطبرسي في أسباب النزول بطريقة تقريرية، حيث اكتفى في غالب الأحيان بنقل الأقوال في هذا المجال. ومن بين مجموع أسباب النزول التي نقلها، كانت هناك فقط 35 حالة تعرض فيها للنقد والتحليل. وكان المعيار الذي يعتمد عليه في النقد والتحليل يشمل الأحاديث، والضرورة الفقهية، وظاهر الآية، والتاريخ. أما أسباب النزول التي لم تكن مقبولة أو معتمدة عنده، فقد تم ردها وفقاً لهذه المعايير.

الفرع الخامس

أهداف السور وأهم خصائصها في تفسير مجمع البيان: قراءة تربوية تعليمية

السور المكية

تتجلى الأهداف العامة لنزول السور المكية، كما ورد في تفسير مجمع البيان، في محورية الدعوة إلى دين الإسلام وعبادة الله وحده لا شريك له، حيث كانت هذه السور تهدف إلى ترسيخ العقيدة التوحيدية في نفوس أهل مكة الذين غلب عليهم الشرك والجهل.(طبرسى، 1367، ج 3، ص 231) كما سعت هذه السور إلى هداية المشركين من خلال بيان الحقائق الإيمانية ودعوتهم إلى التخلي عن عبادة الأصنام والعودة إلى الفطرة السليمة التي تدعو إلى عبادة الخالق.(طبرسى، 1367، ج 8، ص 488) ومن أبرز أهدافها تعريف الناس بالله سبحانه وتعالى بصفاته العظيمة، كونه الرب الذي يُرجع إليه كل شيء، والموجه الذي يهدي البشرية إلى طريق الحق، والبائع الذي يُعطي الأرزاق ويتفضل بالنعم، مع الإشارة إلى الموت ويوم القيامة كحقائق لا مفر منها، لتذكير الناس بحتمية الحساب وأهمية الاستعداد للآخرة.(طبرسى، 1367، ج 7، ص 13)

السور المدنية

تظهر الأهداف العامة لنزول السور المدنية، كما ورد في تفسير مجمع البيان، في تعزيز الوحدة الاجتماعية والدينية بين مختلف الطوائف الإسلامية، من خلال إرساء قيم التكافل والتعاون بين الأفراد.(طبرسى، 1367، ج 5، ص 216) تُركز هذه السور على تقديم المساعدة للفقراء كجزء أساسي من الأخلاق الإسلامية التي تهدف إلى بناء مجتمع عادل، مع وعود الجنة لمن يطيعون الله تعالى، حيث يتم وصف خصائصها كمكان للنعيم والسعادة الأبدية لتشجيع الالتزام بالطاعة الإلهية.(طبرسى، 1367، ج 3، ص 221) كما تتناول السور المدنية تشريعات مهمة مثل قانون الميراث وشروطه، مع الاهتمام الخاص بحقوق النساء والبنات في ضمان العدالة الاجتماعية، وتُحذر من اتباع الكفار وتُوصي بتجنب التحدث في أذن الآخرين في التجمعات للحفاظ على الوئام الاجتماعي.(طبرسى، 1367، ج 4، ص 20) تُبيّن هذه السور الأحكام المتعلقة بالقضايا الدنيوية مثل الطلاق، مع وضع ضوابط شرعية تحمي استقرار الأسرة، وتدعو إلى تجنب السخرية من الآخرين للحفاظ على كرامة الإنسان، مع التأكيد على أهمية الوفاء بالعهد كقيمة أخلاقية راسخة.(طبرسى، 1367، ج 10، ص 468) تُبرز السور مصالح النبي (صلى الله عليه وسلم) في هداية الأمة، بينما تُسلط الضوء على خطر المنافقين والكفار الذين يسعون لإضعاف الدعوة الإسلامية، مما يتطلب من المسلمين الحذر والثبات على الحق.(طبرسى، 1367، ج 5، ص 3)

الخاتمة

أولاً: أجابت الدراسة عن الإشكالية المركزية التي طرحتها في المقدمة (ما التحولات التربوية والتعليمية بين المرحلتين المكية والمدنية؟ وكيف يُستخلص منها نموذج تربوي متكامل؟) بالنتائج الآتية :

1. الخطاب القرآني في المرحلة المكية ركّز على تربية الفرد عقيدةً وخُلقاً وروحاً في ظل الضعف والاضطهاد، بينما انتقل في المرحلة المدنية إلى تربية الأمة تنظيماً وتشريعاً وتمكيناً في ظل الدولة والمجتمع .
2. هذا التحول ليس فجائياً، بل تدرّجي حكيم يبدأ بتزكية النفوس ثم ينتهي بتنظيم الجماعة، وهو نموذج تربوي إلهي قابل للتطبيق في كل زمان .
3. معرفة المكي والمدني ليست علماً تاريخياً فحسب، بل هي مفتاح منهجي لا غنى عنه لاستخراج الأهداف التربوية والقيمية من السور .

ثانياً: في المقارنة بين المصدرين التفسيريين المعتمدين (مجمع البيان للطبرسي والميزان للطباطبائي):

1. يتميز «مجمع البيان» بغناه الروائي والتاريخي، واهتمامه البالغ بأسباب النزول، والقراءات، والنكت اللغوية، والآراء المتنوعة للمفسرين السابقين، مما جعله مرجعاً أساسياً في الجانب النقلي

والسياقي التاريخي، وهي عناصر أصيلة وجوهرية في التفسير تسهم في الفهم الدقيق للسياق التربوي والاجتماعي للآيات .

2. يتميز «الميزان» بمنهج تفسير القرآن بالقرآن، والتركيز الشديد على استخراج المقاصد الإلهية والكشف عن الترابط البيني بين الآيات، والرد على الشبهات المعاصرة، وتحليل القراءات والإعجاز البياني. مثال: في تفسير قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ في سورة البقرة، بيّن الطباطبائي الرابط الدقيق بين قصص بني إسرائيل وبين التربية الاجتماعية للأمة الإسلامية الجديدة، بينما ركّز الطبرسي على أسباب النزول والروايات التاريخية التي تُبرز السياق الواقعي للآية .
3. كلا التفسيرين يكمل أحدهما الآخر: «مجمع البيان» يوفّر العمق التاريخي والنقلي، و«الميزان» يوفّر العمق الفلسفي والموضوعي والتربوي، وهما معاً يشكّلان مدخلاً متكاملاً لاستخراج الأهداف التربوية من السور المكية والمدنية .

ثالثاً: التوصيات والمقترحات

1. ضرورة إيلاء التربويين والمربين المعاصرين اهتماماً أكبر بدراسة المكي والمدني كأساس لتصميم مناهج تربوية تدرّجية تبدأ بتزكية النفس ثم تنتقل إلى تنظيم المجتمع .
2. الاستفادة المزدوجة من منهجي «مجمع البيان» (النقلي التاريخي) و«الميزان» (العقلي الموضوعي) في أي بحث تربوي قرآني مستقبلي لضمان الشمولية والعمق .
3. إجراء دراسات مقارنة أوسع تشمل تفاسير أخرى لتعميق فهم التحول التربوي بين المرحلتين.

المصادر

ابن‌ابی‌جمهور، محمد بن زین‌الدین. (1403). عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية. (مجتبی عراقی و شهاب‌الدین مرعشی، پدیدآورندگان). مؤسسه سید الشهداء (ع).
پژوهشگاه علوم و فرهنگ اسلامی و مرکز فرهنگ و معارف قرآن (پدیدآورندگان). (1382). دائرة المعارف قرآن کریم. بوستان کتاب قم (انتشارات دفتر تبلیغات اسلامی حوزه علمیه قم).
حر عاملی، محمد بن حسن. (بی‌تا). إثبات الهداة بالنصوص و المعجزات. (علاء الدین اعلمی و شهاب‌الدین مرعشی، پدیدآورندگان). مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
ذهبی، محمد حسین. (القرن ١٤). التفسير و المفسرون (ذهبی). بيروت-لبنان: دار إحياء التراث العربي.
شحاته، عبدالله محمود. (1421). تفسير القرآن الكريم. دار غريب.
صالح، عبدالقادر محمد. (1424). التفسير و المفسرون في العصر الحديث. بيروت-لبنان: دارالمعرفة.
طباطبایی، محمد حسین. (1417). الميزان في تفسير القرآن. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
طبرسی، فضل بن حسن. (1367). مجمع البيان. (محمدجواد بلاغی، محسن امین، و احمد رضا، پدیدآورندگان) (ج 1). بیروت لبنان: دار المعرفة.
طبرسی، فضل بن حسن. (1408). مجمع البيان (ج ١–١٠). بيروت-لبنان: دارالمعرفة.
فصیحی، علی. (1374). اسباب نزول در تفسیر مجمع البیان. پژوهشهای قرآنی، (1 ویژه نامه اسباب نزول).

قطب، سيد. (1408). في ظلال القرآن. دار الشروق.
مدرس، عبدالكريم. (1435). مواهب الرحمان في تفسير القرآن (مدرس). دار إحياء التراث العربي.قم ايران. مكتبة الشرق.
معرفت، محمدهادى. (1427). التفسير الأثري الجامع. مؤسسه فرهنگى انتشاراتى التمهيد.
نخبة من العلماء. (1431). التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم. جامعة الشارقه: كلية الدراسات العليا و البحث العلمي.